کتابخانه و مرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

العدد ٦٦/ربيع ٢٠٠٥

فصول

١٢١٢٣٨٤

مجلة النقد الأدبى
علمية محكمة

١٨ آذر ١٣٨٦

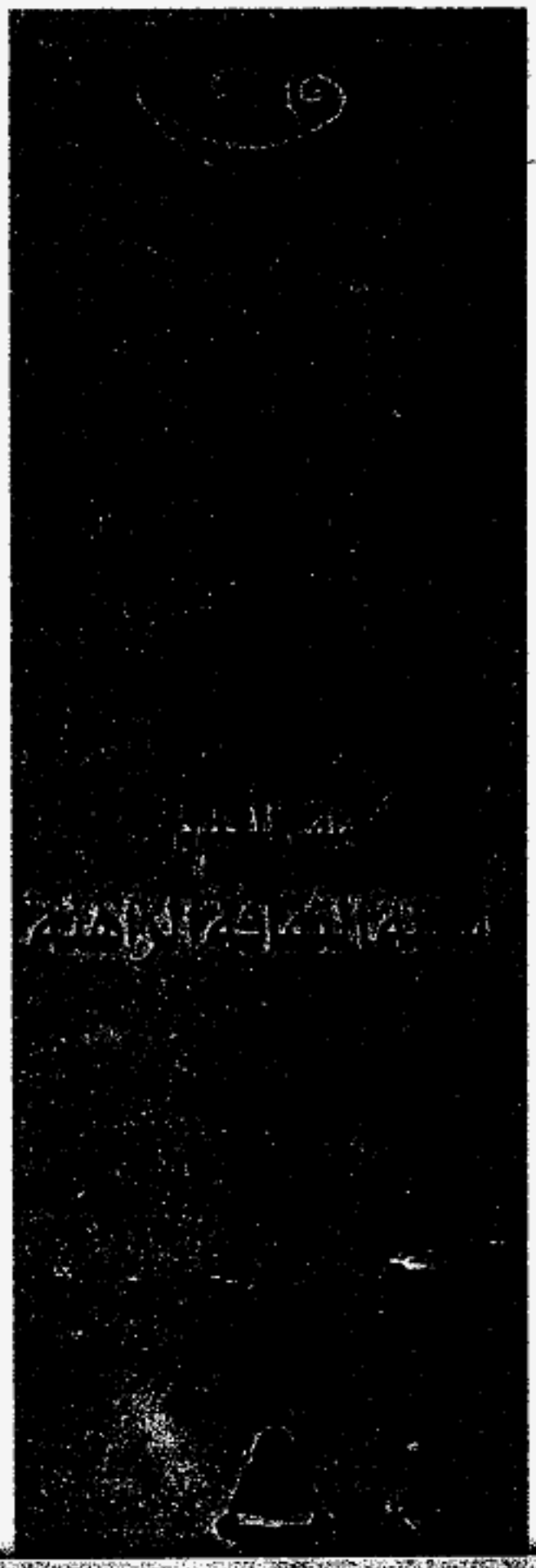

الهيئة المصرية العامة للكتاب

في التفكيك

جوناثان كلر / ت: حسام نايل

تنويه: يتكون كتاب "كلر" من ثلاثة فصول: الأول منها عبارة عن نقاش واسع لاستراتيجيات القرّاء وعمليات القراءة، وهي الاستراتيجيات التي هيأت- بقصد أو دون قصد- نقادَ الأدب ودارسي نظريته لاستدخال الممارسة التفكيكية- الممارسة الفلسفية أساسًا- في برامجهم النقدية والتنظيرية. ومن ثم يتولى الفصل الثاني عبء القيام بمناقشة رائعة ومستفيضة- على درجة كبيرة من الصعوبة والتعقيد- لممارسة التفكيك عند مبتدعه "دريدا"، غير أنه يتجنب ما قد قامت به "جايتري سبيفاك" في مقدمتها الطويلة الوافية لـOf Grammatology كي يسلط الضوء على ما تجنبته "سبيفاك" نفسها. وبذلك يشكل هذا الفصل مع مقدمة "سبيفاك" خلفية واسعة وتمهيدًا موثوقًا به لمن أراد الاقتراب من التفكيك؛ فهُما معًا مفتاحٌ واحد لبوابة التفكيك المستغلقة، غير أنه مفتاح ثقيل يقتضي بذل العناء والجهد (وبناءً عليه نتولى ترجمة كتاب "كلر" كاملاً، كما سنتولى تنقيح وتهذيب ترجمتنا لمقدمة "سبيفاك" التي نشرناها منذ عامين تقريبًا إذ وجدناها عسيرةً على القارىء في كثير من مواضعها). أما الفصل الثالث فهو مناقشة صبورة ومتأنية ووافية لممارسي النقد التفكيكي.

لقد صدر هذا الكتاب منذ أكثر من عشرين عامًا، ونحن لانعرف لماذا تأخرت ترجمته حتى الآن (صدرت أيضًا مقدمة "سبيفاك" منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا!!). كما لا نعرف لماذا يتم التشنيع على التفكيك دون دراية به (ولا نعرف أيضًا ما الذى يدور الآن في قاعات الدرس بالجامعة). لابد أن نعرف الأشياء قبل أن نرفضها أو نقبلها. لابد أن نلاطفها ونحنو عليها حتى تقترب منا فتلين فنلامسها ثم نبدى الرأى- إن رغبنا- بعد تجربتنا معها. وعندئذ سيكون هو الرأى وستكون لنا الحجج والأسانيد. ولنا في "كلر"- عمدة البنيوية الراسخ وشارحها الموثوق به، الرجل المدقق الصبور- أسوة ومن عجب أن نفرًا ممن استخدموا "شارة" التفكيك فوضعوها على دراسات أو مقالات لهم تنم عن جهلهم به - لا يدركون أن "زمن الشارات" قد فات، فلا حظوة الآن لشارة أو صاحبها. إنما الحظوة لمن عرف نفسه بغيره، وهي حظوة لا يمنحها أحد لأحد.

وقبل أن نبدأ نص الترجمة تنبغي الإشارة إلى إفادتنا من "بشير السباعي" بخصوص بعض مفردات وعبارة وردت بالفرنسية دون مقابل إنجليزي. أما الإفادة الأولى - في هذا النص وغيره - فكانت من جابر عصفور الذى كان أول من علمني اسم "التفكيك" والنطق به.

نص الترجمة:

يتخذ التفكيكُ مظاهرَ عديدةً: مرةً يبدو موقفًا فلسفيًا، وثانيةً يكون استراتيجيةً سياسيةً أو فكريةً، ومرةً ثالثةً يبدو طريقةً فى القراءة. وبالطبع ينشغل دارسو الأدب ونظريته انشغالاً أكبر بقوة التفكيك من حيث كونه منهجًا يصلح للقراءة والتفسير. ولأن غايتنا هاهنا شرحُ الكيفية التى يمارس بها التفكيكُ دورًا فى الدراسات الأدبية ثم تقييمُ هذا الدور، فسوف نجعل التفكيكَ من حيث كونه استراتيجيةً فلسفيةً نقطةَ البداية[1].

قد نرى أن التفكيكَ— من حيث كونه استراتيجيةً ضمن حدود الفلسفة واستراتيجيةً للبحث فى الفلسفة— ممارسةٌ تجهد من أجل القيام بمناقشة دقيقة جدًا داخل الفلسفة، كما تجهد فى الآن نفسه من أجل إزاحة المقولات الفلسفية أو المحاولات الفلسفية ذات الهيمنة. ومن ثم يصف دريدا "استراتيجية تفكيك شاملة" على النحو الآتى: "فى التعارض الفلسفى التقليدى لسنا أمام تعايش آمن للطرفين المتقابلين، بل نحن أمام تراتبية قامعة؛ إذ يهيمن أحد الطرفين على الآخر (قيميًا ومنطقيًا، إلخ) فيحتل بذلك موقع السيد. ويقتضى تفكيكُ التعارض— أولاً وعند لحظة معينة— قلبًا لهذه التراتبية" (مواقع، صـ صـ ٤١/٥٦— ٥٧).

وليس هذا القلبُ سوى خطوةٍ أساسية؛ إلا أنه مجرد خطوة. ويتابع دريدا وصف هذه الاستراتيجية الشاملة، موضحًا أنه يتحتم على التفكيك "أن يمارس قلبًا للتعارض الكلاسيكى وإزاحة شاملة للنسق، عبر إيماءة مزدوجة وعلم مزدوج وكتابة مزدوجة. وبهذا الشرط وحده سيتوفر التفكيكُ على وسائل قلقلة[*] حقل التعارضات الذى ينتقده والذى هو أيضًا حقل من القوى المنظمة المتواترة" (هوامش الفلسفة، صـ٣٩٢/SEC صـ١٩٥). إذن، يشتغل ممارسُ التفكيك ضمن حدود العلاقات المتبادلة التى بمقتضاها ينشأ النسقُ، وغايتُه من ذلك تصديعُ النسق.

ويقوم دريدا بصياغة أخرى لهذه الاستراتيجية الشاملة، كما يأتى: "إن تفكيك الفلسفة يعنى ـ إذن ـ الاشتغال عبر الجينالوجية التى قد شَيَّدَت مفاهيمَ الفلسفة اشتغالاً يُقِيمُ عند هذه المفاهيم إقامةً يُداخِلُها الشكُ، ويُعَيِّنُ فى الوقت نفسه— من منظور خارجى ليس بالإمكان منحه اسمًا أو وصفًا بعدُ— ما قد حجبه هذا التاريخُ أو أبعده؛ ذلك التاريخُ الذى قد أنشأ نفسَه من أوله إلى آخره تاريخًا لهذا الكبت. وها هنا يكمن الرهان" (مواقع، صـ٦/١٥).

ويمكن أن نضيف صيغةً ثالثةً إلى السابقتين: إن تفكيك خطابٍ ما يعنى إظهارَ الكيفيةِ التى بها يجعل الخطابُ أسسَ الفلسفةِ تشرعُ فى التآكل حال أن يؤكدها هذا الخطابُ، أو يعنى إظهارَ الكيفيةِ التى تشرع بها التعارضاتُ التراتبيةُ التى يتكئ عليها الخطابُ فى التآكل، ولن يتم ذلك إلا عن طريق تعيين ماهية العمليات البلاغية الناشطة التى تنتج الأساسَ المفترضَ الذى يُقِيمُ البرهانَ فى النص، سواء أكان هذا الأساسُ مفهومًا مفتاحيًا أم مقدمةً منطقيةً. وعلى اختلاف هذه الصيغ الواصفة لاستراتيجية التفكيك الشاملة فيما تشدد عليه— تميلُ حال الممارسة إلى الالتقاء عند نقطة واحدة. ولتوضيح ذلك سوف نتأمل بإيجازٍ حالةً من التفكيك يقوم بها نيتشه، ألا وهى تفكيكه لمبدأ السببية[**].

إن السببيةَ مبدأٌ أساسىٌ من مبادئ جنسنا البشرى؛ إذ ليس بقدرتنا أن نحيا أو نفكر كما قد تعودنا دائمًا دون افتراض أن حدثًا يتسبب فى حدث آخر، وأن الأسبابَ تُوَلِّدُ النتائجَ على الدوام. ولنلحظ عند هذا المستوى أن مبدأ السببية ينطوى على تأكيد الأسبقية المنطقية والزمنية للسبب على النتيجة، غير أن نيتشه يرى فى شذرات من كتابه إرادة القوة أن مفهوم البنية السببية هذا، ليس معطى فى حد ذاته، وإنما هو نتاجُ نشاط بلاغى أو مجازى مُسْتَحْكِم، أو هو نتاجُ عمليةٍ من القلب الكرونولوجى نقوم بها. لنفترض أن شخصًا قد شعر بألم ما، هذا الشعور سوف يدفعه دون شكٍ إلى البحث عن سبب الألم، فقد يفتش مثلاً عن دبوس ثم يفترض ارتباطًا

بين الشعور بالألم والدبوس، فيقلب بذلك الترتيب الحسى أو الفينومينولوجى الذى بمقتضاه يحدث الألم أولاً ثم الدبوس ثانيًا لينتج التسلسل السببى الآتى: دبوس a pin، ثم ألم a pain. "إن ما نُعِيهِ من العالم الخارجى يأتى بعد وعينا بالتأثير الذى قد حدث لنا، ثم نعتبره فيما بعد سببًا لذاك التأثير. وبذلك نعكس الترتيب الزمنى للسبب والنتيجة، على غير مقتضى ظاهراتية العالم الداخلى، فتغدو الواقعة الأساسية فى التجربة الداخلية هى أننا نتخيل السبب بعد حدوث النتيجة" (الأعمال الكاملة، مجلد ٣، صـ ٨٠٤). وهكذا تُنْتِجُ الكنايةُ أو(استبدال السبب بالنتيجة) مخططَ السببيةِ؛ وإذا كان ذلك كذلك فلن ينطوى المخططُ السببىُّ على أساسٍ راسخٍ يُقِيمُه، وإنما يصبح نتاجَ عمليةٍ مجازيةٍ ناشطةٍ.

ولنكن واضحين قدر الإمكان بخصوص مؤديات هذه الحالة: أولاً لا يؤدى تفكيك مبدأ السببية بهذه الكيفية إلى استنتاج عدم صحة المبدأ حتى نتخلى عنه، وإنما على العكس من ذلك يتكئ التفكيكُ نفسُه على فكرة السبب؛ إذ يدَّعى التفكيكُ أن تجربةَ الألم تتسببُ فى اكتشاف الدبوس، ومن ثم تتسببُ فى توليد السبب. وحال أن يكون ذلك كذلك فإن تفكيكَ السببية يقتضى تشغيلَ فكرة السبب وتطبيقَها على العملية التى بمقتضاها يحدثُ السببُ نفسُه، وهكذا لا يلجأ التفكيكُ إلى مبدأ منطقى يعلو على مبدأ السببية، وإنما يستخدم المبدأ نفسَه الذى يسعى إلى تفكيكه. ليس مفهومُ السببيةِ خطأً كان يمكن للفلسفةِ ألا تقع فيه أو كان يتحتم عليها ألا تقع فيه، وإنما هو مفهومٌ لا مفر منه، سواء فى المحاجَّة التى يقومُ بها التفكيكُ أو فى أية محاجَّات أخرى.

وثانيًا لابد من التفرقة بين تفكيك نيتشه لمبدأ السببية وما يقدمه هيوم من أدلةٍ تنهضُ بالتشكيك فى المبدأ، على الرغم من أن الفيلسوفين يبغيان بصفةٍ عامةٍ هدفًا واحدًا. يدَّعى هيوم فى مؤلفه رسالة فى الطبيعة الإنسانية أن بحث السياقات السببية سوف يُفضِى بنا إلى اكتشاف علاقاتٍ من الاتصال والتتابع الزمنى، وأما أن تعنى "السببيةُ" أشياءَ أبعدَ من هذه العلاقات فهذا أمرٌ ليس بقدرتنا البرهنة عليه. حينما نقول إن شيئًا ما يتسبب فى شىء آخرَ فما نخبره فى الواقع هو "أن موضوعاتٍ متماثلةً تتموضعُ على الدوام فى علاقاتٍ متماثلةٍ من الاتصال والتتابع" (I, III, VI). ويُسَائِلُ التفكيكُ السببيةَ بالطريقةِ نفسِها، غير أنه يقوم فى الوقت نفسه بخطوةٍ مختلفةٍ تمامًا؛ إذ يوظِّفُ فكرةَ السبب نفسَها فى المحاجَّةِ. ولو اعتبرنا "السببَ" تفسيرًا للاتصال والتتابع فسيصبح الألم من ثمَّ سببًا بما أننا نستشعره أولاً فى سياق خبرتنا[٢]. وهذا الإجراءُ المزدوجُ المتضمنُ فى توظيف المفاهيم أو المقدمات المنطقية بشكل ترتيبى لا يجعل الناقدَ منفصلاً عما يفعل ومتشككًا فيما يفعل، وإنما يورطه توريطًا غير ممكن تبريره، مما يؤكد حتمية السببية لحظة إنكارها أى تبرير قاطع. ويُعَدُّ ذلك وجهًا من وجوه التفكيك، يلقى الكثيرون صعوبةً فى فهمه أو تقبله.

وثالثًا يقلب التفكيكُ التعارضَ التراتبىَّ الذى يُقِيمُ مخططَ السببية. فالحاصل أن التمييز بين السبب والنتيجة يجعل من السبب أصلاً Origin بمنحه أسبقيةً زمنيةً ومنطقيةً، فى حين تصبح النتيجةُ مشتقةً وثانويةً ومعتمدةً على السبب. ونحن نلحظ أن التفكيك الذى يشتغل ضمن حدود التعارض يُبْطِلُ التراتبَ عن طريق استبدال فى الصفات المائزة غير عابئٍ باستكشاف دوافع العملية التى بمقتضاها يحدث التراتبُ، أو تضمِّيناتِ هذه العملية. وحال أن يكون ذلك كذلك فالنتيجةُ هى ما يتسبب فى السبب حتى يصير سببًا؛ ولذلك فمن الأحرى منح النتيجة— وليس السبب— مرتبةَ الأصل. وعن طريق إظهار أن الحجةَ التى بمقتضاها يحتلُّ السببُ مرتبةً أعلى، هى نفسُها الحجةُ التى بمقتضاها نتمكَّنُ من منح المرتبةِ نفسِها للنتيجة— نستطيع أن نُعَرِّىَ ونُبْطِلَ العمليةَ البلاغيةَ الناشطةَ المسئولةَ عن إحداث التراتب، منتجين بذلك إزاحةً دالةً. وإذا كان بقدرةِ أىٍّ من السبب أو النتيجة أن يشغلَ مرتبةَ الأصلِ فلن يكون الأصلُ والحال هكذا أصليًا، ويخسر من ثمَّ

امتيازَه الميتافيزيقيَّ. وحال أن يكون الأصلُ اللاأصليُّ مفهومًا Concept لا يُبَرِّرُهُ نسقٌ سابقٌ عليه، تنهار فكرةُ النسق بكاملها.

إن تفكيكَ نيتشه لمبدأ السببية يثير إشكالات عديدة، وقد اخترناه شاهدًا موجزًا على الإجراءات العامة التى نواجهها فى نصوص جاك دريدا، وهى نصوص/كتابات تشتبك مع سلسلة طويلة من النصوص، حيثما يأتى فى المقام الأول الفلاسفة الكبار بالإضافة إلى آخرين: أفلاطون فى (التشتيت)، وروسو فى (فى علم الكتابة)، وكَانْت فى ("اقتصاد المحاكاة"، الحقيقة فى الرسم)، وهيجل فى (هوامش الفلسفة، نواقيس)، وهوسرل فى (أصل الهندسة، الصوت والظاهرة، هوامش الفلسفة)، وهيدجر فى (هوامش الفلسفة)، وفرويد فى (الكتابة والاختلاف، كارت بوستال)، ومالارميه فى (التشتيت)، وسوسير فى (فى علم الكتابة)، وجينيت فى (نواقيس)، وليفى شتروس فى (الكتابة والاختلاف، علم الكتابة)، وأوستن فى (هوامش الفلسفة). ومعظم هذه الاشتباكات تتعلق بإشكال يحدِّدُ دريدا طبيعتَه بشكل دقيق فى مؤلفه "صيدلية أفلاطون"، وهذا الإشكال هو: فى كتابته الفلسفية يشجبُ أفلاطون الكتابةَ. لماذا؟

> ما القانون الذى يتحكم فى هذا "التناقض"، فى هذا التعارض الذى ينطوى عليه شجبُ الكتابةِ أثناء الكتابة، وفى قول يعلنُ عن نفسِه ضد نفسِه حال أن يجدَ طريقَه إلى الكِّتابةِ، حال أن يسيء إلى هويته الذاتية بالكتابة، ثم ينقل ما هو خاص به من وضد ونحوِ أساس الكتابة؟ هذا "التناقضُ" الذى ليس إلا علاقةً ذاتيةً ينطوى عليها أسلوبُ الأداءِ بما أنه يُعَارِضُ نفسَه بالنص المكتوب، ... هذا التناقضُ ليس طارئًا (التشتيت، صـ١٥٨).

يُعَرِّفُ الخطابُ الفلسفيُّ نفسَه بالتعارض مع الكتابة، ومن ثمَّ بالتعارض مع نفسه، ويدَّعى دريدا أن هذا الانقسامَ الذاتىَّ أو التعارضَ الذاتىَّ ليس غلطةً mistake أو مصادفةً تظهر أحيانًا فى النصوص الفلسفية، وإنما هو خاصيةٌ بنيويةٌ ينطوى عليها الخطابُ الفلسفىُّ نفسُه. لماذا توجد هذه الخاصية؟ هذا هو السؤال الذى يمثل نقطةَ بدءٍ فى النقاش الذى يقوم به دريدا، مما يثير أسئلةً عديدةً من قبيل: لماذا تُقَاوِمُ الفلسفةُ فكرةَ أنها نوعٌ من الكتابة؟ ولماذا يكتسب السؤالُ عن موقع الكتابة هذه الأهميةَ؟

١- الكتابة ونزعة مركزية اللوجوس:

يُؤَرْشِفُ دريدا فى كتابه "فى علم الكتابة" وفى كتب أخرى المرتبةَ المتدنيةَ التى تحظى بها الكتابةُ فى الكتابات الفلسفية. وقد افترض الفيلسوف الأمريكى ريتشارد رورتى أننا نظن بدريدا الإجابةَ عن السؤال الآتى: "المفترض أن الفلسفة هى نوع من الكتابة، فلماذا يلقى هذا الافتراضُ مقاومةً؟ وهو السؤال الذى يتحول فى عمل دريدا إلى سؤال آخرَ يتسم بالاستخفاف: "ما الذى يجب على الفلاسفة أن يعتقدوه بخصوص ما تكون عليه الكتابةُ، وهم الذين يرفضون هذا الوصف بالذات؛ ذلك أنهم يجدون فكرةَ أن الفلسفةَ كتابةٌ فكرةً تستثير انزعاجهم على الدوام؟" (الفلسفة بوصفها نوعًا من الكتابة، صـ١٤٤).

إن الفلاسفةَ يكتبون، غير أنهم لا يعتقدون أن الفلسفةَ ينبغى أن تكون كتابةً. والفلسفةُ التى يكتبونها تَعْتَبِرُ الكتابةَ وسائلَ لتعبير هو فى أحسن الأحوال لا علاقةَ له بالفكر الذى يُعَبِّرُ عنه، وفى أسوأ الأحوال يُعَدُّ عائقًا أمام هذا الفكر. ويتابع رورتى موضحًا أنه فيما يتعلق بالفلسفة: "تصبح الكتابةُ اضطرارًا تعِسًا؛ لأن ما تبغيه الفلسفةُ فعليًا الإراءةَ والبرهنةَ والإشارةَ والإظهارَ

والوصولَ بالمُحَاور إلى النظرة المُحَدَّقةِ فى حضرة العالم. ... ذلك أن تمامية العلم تقتضى أن تكون الكلمات التى "يَصُوغ" بها الباحثُ نتائجَه قليلةً وشفافةً كلما أمكن. ... تهدفُ الكتابةُ الفلسفيةُ- عند هيدجر وعند الكانطيين- إلى وضع نهايةٍ للكتابة، فى حين تُفْضِى الكتابةُ عند دريدا إلى المزيد والمزيد من الكتابة، على الدوام" (صـ١٤٥).

تتوق الفلسفةُ بشكل مميز إلى حل المشكلات، أو إلى إظهار الكيفية التى تكون عليها الأشياء، أو إلى تحليل الموضوعاتِ الشائكة؛ ومن ثمَّ تتوق إلى وضع نهايةٍ للكتابة حول موضوع ما بالعثور على الحق فيه. وبالطبع ليست الفلسفةُ وحدها فى هذا المسعى على الإطلاق؛ ذلك أن أى فرع معرفى منضبط يتحتم عليه افتراضُ إمكانِ حلِّ إشكال ما والظفر بالحقيقة ثم كتابةِ الكلمات الأخيرة. إن الغايةَ المُثْلَى فى أى فرعٍ معرفىٍ هى الغايةُ المُثْلَى من أىِّ بحثٍ يصل بالكتابة إلى نهايتها. ونقادُ الأدب الذين يُفزعهم تكاثُرُ التفسيراتِ كما يفزعهم مشهدُ مستقبلٍ تُوَلِّدُ فيه الكتابةُ مزيدًا من الكتابة ما دامت المجلات الأكاديمية ومطابع الجامعة- هؤلاء النقاد غالبًا ما يحاولون وضع تصور للوسائل التى تصل بالكتابة إلى نهايتها عن طريق إعادة صياغة غايات النقد الأدبى حتى يكون فرعًا معرفيًا منضبطًا. وعادة ما تُعَرِّفُ الادعاءاتُ المثارةُ حول الغرض الحقيقى من النقد مهماته بأنها مهماتٌ قد اكتملت من حيث المبدأ. وإذن يلتمس هؤلاء النقاد أيضًا الأملَ فى قول الكلمة الأخيرة حتى تتوقف عمليةُ التعليق على النصوص. والحاصل أن الأملَ فى الوصول إلى الصواب يدفعهم إلى الكتابة، مع أنهم يعرفون تمام المعرفة أن الكتابةَ لا تضعُ نهايةً للكتابةِ. والمفارقةُ كامنةٌ فى أن التفسيرَ الأكثرَ قوة والمتمتعَ بسلطةٍ مرجعيةٍ لا يُوَلِّدُ إلا مزيدًا من الكتابة.

وأيًا كان ما تثيره الكتابةُ من إزعاجات يعانيها نقادُ الأدب فإن الوضعَ شديد الخطورة بالنسبة إلى الفلاسفة خصوصًا؛ ذلك أنهم يفتشون عن حلٍ للمشكلات المتعلقة بشروط الحقيقة وإمكان المعرفة والعلاقة بين اللغة والعالم، ومن ثمَّ تصبح علاقةُ لغتهم بالحقيقة وبالعالم جزءًا من المشكلة. وإذن سوف يخلق اعتبارُ الفلسفةِ كتابةً صعوباتٍ كبيرةً. الفلسفةُ هى تعريفٌ لعلاقة الكتابة بالعقل، وإذن يتحتم عليها ألا تكون هى نفسُها كتابةً نظرًا لأنها تبغى تعريفَ العلاقةِ من منظور العقل وليس من منظور الكتابة، وبما أن الفلسفةَ تحدد حقيقة علاقة الكتابة بالحقيقة، يتوجب عليها أن تنحاز للحقيقة وليس للكتابة. إن ملاحظة دريدا التى اقتبستُها أعلاه والمتعلقةُ بالقول الذى يعلن عن نفسه ضد نفسه حالما يكتب نفسَه أو حالما يكون مكتوبًا، هذه الملاحظةُ دقيقةٌ جدًا؛ لأن ما قد كُتب بدءًا من أفلاطون مؤداه أن الفلسفةَ يجب أن تشجبَ الكتابةَ، ويجب أن تُعَرِّفَ نفسَها ضد الكتابة. وادعاءُ الفلاسفة أن المنطق والعقل والحقيقة تُشَيِّدُ عباراتِ الخطاب الفلسفى -ولا تشيدها بلاغةُ اللغة التى "يُعَبِّرون" بها- يدفع هذا الخطابَ إلى تعريف نفسه ضد الكتابة.

ومن هذا المنظور، تُعتبر الكتابةُ سطحيةً وفيزيقيةً وغير متعالية. إن ما تثيره الكتابةُ من تهديدٍ يتمثل فى أن عملياتِها الناشطةَ التى ينبغى أن تكون مجرد وسائل للتعبير؛ هذه العمليات قد تؤثر أو تُلَوِّثُ المعنى الذى من المفترض أن تتمثله. ومن الممكن توضيح حدود هذه الفكرة على النحو الآتى: توجد أفكار- والأفكار مملكة الفلسفة على سبيل المثال- وتوجد أنساقٌ وسيطةٌ يتم عبرها نقلُ هذه الأفكار وتبادلها، والكلامُ نسقٌ وسيطٌ تتلاشى دوالُه حال نطقها، ومن ثمَّ لا تتخذ الدوال شكلاً ملموسًا، وبقدرة المتكلم إزالة أية التباسات قد تطرأ ليضمن أن أفكاره قد تم نقلها، أما فى الكتابة فلا تتلاشى الهيئات الوسيطة؛ إذ تبقى الدوال لأن الكتابة تقدم اللغة فى سلسلة من الإشارات المادية التى تُمارس عملَها فى غياب المتكلم. وفى الأشكال البلاغية التى تتمتع بفنيةٍ عاليةٍ تتسمُ هذه الإشاراتُ بدرجةٍ عاليةٍ من الغموض والتشابك.

إن الغايةَ المُثلى هى تأملُ الفكر على نحو يتسم بالمباشرة، ولأن هذه الغايةَ المُثلى بعيدةُ المنال فعلى اللغة أن تكون شفافةً قدر المستطاع؛ ذلك أن عدم الشفافية ينطوى على تهديدٍ خطير قد يؤدى بالعلامات اللغوية إلى حجب العيان المباشر، فلا تُسْعِفُ من ثمَّ بتأمل الفكر مباشرةً، كما قد تؤثر فى الفكر أو تلوثه بشكلها المادى الوسيط والمتطفل. وبذلك تقع الفكرةُ الفلسفيةُ فى أحبولة الاحتمالات التى تنطوى عليها اللغة والتعبير وقد تتأثر بأشكال دوال اللغة، مما يؤدى - والحال هكذا - إلى افتراض علاقةٍ سببيةٍ بين الرغبة فى الكتابة والرغبة فى ظفرها بما هو حق، ويعد ذلك وضعًا شديد السوء. وعلى سبيل المثال، هل بقدرتنا التيقن من أن فكرتنا الفلسفية عن العلاقة بين الذات Subject والموضوع object ليست متأثرةً بالتساوق البصرى أو المورفولوجى الذى ينطوى عليه هذان المصطلحان، وليست متأثرةً بحقيقة أنهما يتشابهان صوتيًا إلى حد بعيد؟ والأخطر من ذلك حالة التورية التى تُعَدُّ خطيئةً فى حق العقل نفسه؛ إذ يتم اعتبارُ العلاقةِ "العارضة" أو السطحية بين الدوال علاقةً مفهوميةً Conceptual، فتتعين ماهيةُ الـ"History— تاريخ" مثلاً بوصفها "His story"، أو تنشأ علاقةٌ بين المعنى (Sens) والغياب (Sans). إننا نعتبر التوريةَ مزحةً مخافةَ أن تتسببَ الدوالُّ فى تلويث الفكر.

تنبذُ الفلسفةُ الدالَّ signifié بالطريقة نفسها التى تنبذ بها الكتابةَ، نبذًا يُعَدُّ حركةً تُؤَسِّسُ بها الفلسفةُ نفسَها فرعًا معرفيًا منضبطًا غير متأثر بمكائد الكلمات وما تنطوى عليه من علاقات احتمالية— ضبط الفكر والعقل. وهكذا تحدد الفلسفةُ نفسَها بكونها ما يتجاوزُ الكتابةَ ويعلو عليها، كما تجهد من أجل تحرير نفسها من هذه المشكلات التى تنطوى عليها الكتابةُ فتَعتبر الكتابةَ بديلاً اصطناعيًا عن الكلام، وما قد أسعفها بذلك أنها قد حددت طبيعةَ الدور الذى تقوم به اللغةُ بصدد الكتابةِ. وقد تمتعت الإدانةُ الموجهةُ للكتابةِ- وهى الإدانةُ التى نلقاها عند أفلاطون وعند غيره من الفلاسفة- بأهمية متزايدة، ولذلك سببان: الأول: أن "نزعةَ مركزية الصوت" التى تَعتبر الكتابةَ تمثيلاً للكلام، والتى تضع الكلامَ فى علاقةٍ مباشرةٍ وطبيعيةٍ مع المعنى— هذه النزعةَ مرتبطةٌ بـ"نزعة مركزية اللوجوس" التى تنطوى عليها الميتافيزيقا ارتباطًا لا خلاص منه، والثانى: أن توجيةَ الفلسفةِ نحو نظام ما للمعنى— الفكر والحقيقة والعقل والمنطق— قد اعتبر إيجادًا لها فى ذاتها وتأسيسًا. والإشكالُ الذى يحدد طبيعتَه دريدا لا يتضمن علاقةَ الكلام والكتابة فى الخطاب الفلسفى فحسب، بل يتضمن أيضًا ادعاءَ أن الفلسفاتِ المتنافسةَ ليست إلا نسخا من نزعة مركزية اللوجوس، ويراها دريدا على هذا النحو؛ لأنها تتفق جميعًا فى البحث عن أساسٍ وعن شىء لا نتخطاه، وهذا ما يجعلها فلسفات تتنافسُ على هذا الأساس.

لقد أسست الفلسفةُ "ميتافيزيقا الحضور"، وهى الميتافيزيقا الوحيدة التى نعرفها. يكتب دريدا: "من الممكن تبيان أن كل الأسماء تعود إلى أسس أو إلى مبادئ، أو تعود إلى مركز يشير دائمًا إلى استمرارية الحضور" (الكتابة والاختلاف، صـ ٢٧٩/٤١١). إن نزعة مركزية الصوت، أى الامتياز المنعقد للصوت:

> تندمجُ، على طول التاريخ، مع تحديد معنى الوجود عمومًا بوصفه حضورًا، كما تندمج مع كل التحديدات الفرعية التى تستند إلى هذا الشكل العام وتُنْشئ ضمن حدوده نسقَها وترابطاتِها التاريخية بشكل عضوى (حضور الموضوع إلى النظر بوصفه جوهرًا ومثالا eidos، والحضور بوصفه جوهرًا/ماهية/ وجودًا "كائنية ousia"، والحضور الزمنى بوصفه نقطة "stigme" للآن أو اللحظة "nunc"، والحضور الذاتى الذى

ينطوى عليه الأنا أفكر The Cogito والوعى والذاتية والحضور معًا للذات والآخر والبين ذاتية بوصفها ظهورًا قصديًا للأنا ego ،إلخ). وعلى هذا النحو تنعقد نزعةُ مركزيةِ اللوجوس فى تحديدِ وجودِ الموجودِ بوصفه حضورًا (فى علم الكتابة، صـ١٢/٢٣).

إن كل مفهوم من هذه المفاهيم - التى تنطوى جميعُها على فكرة الحضور - قد اتخذَ فى كل المشروعات الفلسفية صفةَ الأساس وتَمَّ اعتبارُه مركزًا؛ أى قوةً أو مبدأً يُرْتَكَزُ إليه. ففى تعارضاتٍ من قبيل: معنى/شكل، وروح/جسد، وحدس/تعبير، وحرفى/مجازى، وطبيعة/ثقافة، وعقلى/حسى، وإيجابى/سلبى، ومتعالى/تجريبى، وجاد/غير جاد- يُعْزَى الطرفُ الأعلى إلى اللوجوس، ويحتلُّ وضعَ حضور أعلى فى حين يُؤشِّرُ الطرفُ الأدنى على سقوطٍ ما. ومن ثمَّ تفترض نزعةُ مركزيةِ اللوجوس أسبقيَّةَ الطرفِ الأول، ولا تَفْهَمُ الطرفَ الثانىَ إلا بالرجوع إلى الأول على اعتبار أنه حالةٌ ثانويةٌ أو نفىٌ أو مظهرٌ أو تمزقٌ للطرف الأول. وعندئذ يصبح الوصفُ أو التحليل:

مشروعًا للعودة "بشكل استراتيجى"- فى عملية بمقتضاها تنشأُ الأَمْثِلَةُ- إلى أصل أو إلى "أوليةٍ" اعتبرت بسيطةً وبكرًا وسويةً ونقيةً ومعياريةً ومتطابقةً مع نفسها؛ مما يؤدى بالتالى إلى التفكير فى عملية الاشتقاق وحالة الثانوية والتلف التدريجى والمصادفة، إلخ. وقد مضى كل الميتافيزيقيين فى طريقهم على هذا النحو بدءًا من أفلاطون إلى روسو، ومن ديكارت إلى هوسرل: الخير قبل الشر، والإيجابى قبل السلبى، والنقى قبل المهجن، والبسيط قبل المركب، والجوهرى قبل العارض، والمحاكَى قبل عملية المحاكاة، إلخ. وليست هذه مجرد إيماءة ميتافيزيقية واحدة من بين إيماءات أخرى، وإنما هى مقتضى ميتافيزيقىٌّ وإجراءٌ يتمتع باستمرارية فائقة وعمق وهيمنة (الشركة المحدودة، صـ ٦٦/٢٣٦).

ونفترض عمومًا أن هذا هو الإجراء المتبع فى أى تحليل "جاد": على سبيل المثال أن نقوم بوصفِ حالةٍ من التفكيك تتسمُ بالإطلاق والسواء والمعيارية؛ أى نُنَمْذِجُ صورةً إيضاحيةً لطبيعته "الجوهرية"، وفى ضوء هذه الطبيعة الجوهرية نناقش حالاتٍ أخرى باعتبارها حالاتٍ ثانويةٍ واشتقاقيةٍ وذات طابع يتسم بالنقص. ومما يُعَدُّ علامةً على شمول نزعةِ مركزيةِ اللوجوس وتغلغلِها، صعوبةُ تخيل وممارسةِ إجراءاتٍ بخلاف هذا الإجراء.

ومن بين المفاهيم المألوفة التى تستند إلى قيمة الحضور: فوريةُ الحسِّ، وحضورُ الحقائق المطلقةِ إلى وعى إلهى، والحضورُ الناشطُ لأصل ما فى سيرورةٍ تاريخيةٍ ما، والحدسُ العفوىُّ أو الحدسُ دون وسيط، والفرضيةُ المتجاوِزةُ التى تقود الفرضيةَ والنقيضةَ فى التركيب الديالكتيكى، والحضورُ ضمن حدود الكلام فى البنياتِ المنطقية وبنيات قواعد اللغة، والحقيقةُ بوصفها ما يوجد خلف المظاهر، والحضورُ الناشطُ لغايةٍ ما فى الخطوات المؤدية إليها. إن السلطة المرجعية للحضور؛ أى قوته التى تنطوى على تثبيت، تُشَيِّدُ كلَّ تفكيرنا؛ ذلك أن أفكارًا من مثل: "الإيضاح"، و"الإمساك بنقطة البدء"، و"البرهنة"، و"الكشف"، و"إظهار ما يُعَدُّ الحالةَ بألف ولام التعريف"- تستحضر كلُّها فكرةَ الحضور. وادعاءُ أن الـ"أنا" تقاوم الشك الجذرى، كما يحدث فى

الكوجيتو الديكارتى؛ لأنها حاضرةٌ إلى نفسها في فعل التفكير أو فى فعل الشك— هذا الادعاءُ يُعَدُّ طريقةً من طرق الاستناد إلى الحضور. أما الطريقةُ الأخرى، فهى فكرةُ أن المعنى الذى ينطوى عليه أىُّ منطوق حاضرٌ إلى وعى المتكلم؛ أى إلى "نية" المتكلم أو المتكلمة عند لحظة النطق.

وكمّا تشير هذه الأمثلة، تتمتع ميتافيزيقا الحضور بانتشار وألفة وقوة. ومع ذلك فثمة إشكال تواجهه هذه الميتافيزيقا على نحو مميز: حين تستشهد البراهين الفلسفية بشواهد معينة على الحضور معتبرةً هذه الشواهد أرضًا تُشَيِّدُ عليها أفكارًا تالية، تتكشف هذه الشواهد باستمرار عن تركيبات معقدة بالفعل؛ أى أن ما يُفترض أنه معطى— أى مقوِّم أولىٌّ— يتكشف عن كونه نتاجًا لشىء سابق عليه؛ أى يتكشف عن كونه تابعًا أو مشتقًا بكيفية تحرمه من السلطة المرجعية التى ينطوى عليها الحضورُ البسيطُ أو الخالصُ.

ولعل أفضل مثال على ذلك حالة السهم المنطلق: فإذا كنا نعتبر أن الواقع هو ما يكون حاضرًا عند أية لحظة محددة فسوف تنطوى حركة السهم من ثمَّ على مفارقة؛ ذلك أن السهم موجود فى نقطة مستقلة عند كل لحظة، إنه دائمًا فى نقطة مستقلة وليس فى حالة حركة، غير أننا نرغب فى الإصرار على كون السهم فى حالة حركة عند كل لحظة من بداية انطلاقه إلى نهايته، ولنا بالطبع مبررنا فى ذلك، على الرغم من أن حركته ليست حاضرة عند أية لحظة حضور. إن حضور الحركة يمكن تصوره؛ أى يمكن إنتاجه، بقدر ما تكون كلُّ لحظةٍ موسومةً فعليًا بآثار traces الماضى والمستقبل فحسب، وحال أن تكون اللحظةُ الحاضرةُ نتاجًا لعلاقات بين الماضى والمستقبل وليست شيئًا معطى، عندئذ فحسب يمكن أن تكون الحركةُ حاضرةً. ويمكن أن تحدث الحركة عند لحظة ما محددة لو أن اللحظةَ منقسمةٌ على نفسها ضمن حدود نفسها؛ أى لو أنها مسكونة باللاحاضر.

وتلك واحدة من مفارقات زينون، مؤداها البرهنةُ على استحالة الحركة، غير أنها مفارقةٌ تشى بالعقبات التى يواجهها نسقٌ مؤسَّسٌ على الحضور. والسبب فى أننا نظن أن الواقعىَّ هو ما يكون حاضرًا عند أية لحظة محددة، أن اللحظةَ الحاضرةَ تبدو لنا بسيطةً ومطلقةً على نحو لا يمكن معه حلُّها إلى عناصر أبسط. إن الماضىَ حاضرٌ، لكن ما يَثْبُتُ في النهاية هو أن اللحظةَ الحاضرةَ يمكن أن تؤدِّى دورَ الأساس حال ألا تكون معطى خالصًا ومستقلاً بذاته فقط. ولو اعتبرنا الحركةَ حاضرةً فلابد أن يكون هذا الحضورُ موسومًا بالاختلاف والتأجيل. يقول دريدا: إن علينا أن "نفكر فى الحاضر بدءًا من علاقته بالزمن، وفى هذه العلاقة فحسب بوصفها اختلافًا وقائمةً بالاختلاف والتأجيل" (فى علم الكتابة، صـ ١٦٦/٢٣٧). إن فكرةَ الحضور وفكرةَ ما هو حاضرٌ مشتقةٌ: أى نتيجة اختلافات. يكتب دريدا: "وهكذا نسعى إلى افتراض الحضور... ليس بوصفه نسيجًا مطلقًا لشكل الوجود، بل الأحرى بوصفه عملية من التعيين ونتيجة. تحديدٌ ونتيجةٌ ضمن حدود نسقٍ ليس نسقَ حضورٍ بل نسقَ اختلاف" (هوامش الفلسفة، صـ ١٧/ الاختلاف المرجئ، صـ١٤٧).

ومن ثم ليست المسألةُ هاهنا إلا مسألة التعارض التراتبى بين الحضور والغياب. ويقتضى تفكيكُ هذا التعارض البرهنةَ على أن الدور الذى يقوم به الحضورُ لابد أن تكون له الخواصُّ نفسُها التى تُعزى افتراضًا إلى نقيضه، أى: الغياب. وبذلك يمكننا اعتبار "الحضور" نتيجةً لغيابٍ معمم، أو كما سوف نرى باختصار نتيجةً لـ اختلاف مرجئ(***)، بدلاً من تعريف الغياب بلغة الحضور، أى: بدلاً من تعريفه من حيث كونه نفيًا له. وستصبح هذه العمليةُ الناشطةُ— أقصد الاختلاف المرجئ— أوضحَ لو أننا تأملنا مثالاً آخر على العقبات التى تنشأ ضمن حدود ميتافيزيقا الحضور. ويتعلق هذا المثال بعملية الإدلال، وهى ما قد نطلق عليه مفارقة البنية والحدث.

من المقبول ظاهريًا ادعاءُ أن معنى أية كلمة هو ما يعنيه بها المتكلمون. ومعنى أية كلمة ضمن حدود نسق أية لغة- وهو ما نجده عندما نبحث عن أية كلمة فى المعجم- هو ثمرة المعنى الذى قد منحه لها المتكلمون فى أفعال التواصل السابقة، وما يصدق على أية كلمة يصدق على اللغة بوجه عام: إن البنيةَ التى تنطوى عليها لغةٌ ما- أى نسقَ قواعدها وتواتراتها- تُعَدُّ نتاجَ أحداث؛ أى ثمرة أفعال كلام سابقة. ومع ذلك، لو أننا أخذنا هذه المسألة بجدية وشرعنا فى النظر إلى الأحداث التى يقال إنها تحدد بنيات اللغة فسوف نكتشف أن كل حدث هو نفسه قد حددته من قبل بنياتٌ سابقةٌ عليه فجعلته ممكنًا. كما أن إمكانَ ما نعنيه بشىء ما فى منطوق ما منقوشٌ من قبل فى بنية اللغة. وما البنياتُ نفسُها إلا نتاجاتٌ على الدوام؛ إذ إننا مهما أوغلنا إلى الوراء فى محاولةٍ لتخيل "نشأة" اللغة حتى نصفَ الحدثَ الأصلىَّ الذى يُحتمل أن يكون قد أنتج البنيةَ الأولى، فسوف نكتشف أن علينا افتراض وجود عملية تنظيمٍ سابق، أى: وجود عملية تمايز(....) سابق.

وكما قد رأينا فى حالة السببية، لا نجد هاهنا إلا أصولاً لاأصلية فحسب: ذلك أنه إذا كان رجل الكهف قد افتتح بنجاح اللغةَ باصطناعه همهمةً خاصةً يدل بها على "الطعام"، فلابد أن نفترض أن هذه الهمهمة قد انمازت من قبل من همهمات أخرى وأن العالم قد تَمَّ تقسيمُه بالفعل إلى فئتى "طعام" و"لا طعام"؛ مما يعنى أن الأفعال التى بمقتضاها تنشأ عملية الإدلال تستند إلى اختلافات، مثل التقابل بين "الطعام" و"اللاطعام"، وهو التقابل الذى يسمح بالإدلال على الطعام، أو تستند إلى التقابل بين عناصر دالة؛ مما يسمح لسياق ما أن يؤدى دورًا دالاً. وعلى سبيل المثال لا يعتبر التتابع الصوتى فى كلمة bat دالاً إلا بتغايره عنْ تتابعات صوتية أخرى مثل: bet, bad , mat , pat إلخ. إن الصوتَ المسموعَ الذى يكون "حاضرًا" عندما نتلفظ كلمة bat مسكونٌ بآثار أشكال أخرى من أصوات لم نتلفظها، وما نتلفظه يمكن أن يؤدى دورًا دالاً حال أن ينطوى على مثل هذه الآثار فحسب. وكما رأينا فى حالة الحركة، فما يُفترض فيه أنه حاضرٌ ينكشف عن أنه مركب ومتمايز، أى: نتاج اختلافات.

إن أى تفسير للغة، وهو يفتش عن أساس صلب، سيأمل دون شك فى اعتبار المعنى شيئًا حاضرًا فى مكان ما ـ لنقل حاضرًا إلى الوعى عند اللحظة التى تنطوى على حدث دال، غير أن أى حضور نتلمسه يَثبت فى النهاية أنه مسكونٌ باختلافات. ولو حاولنا تبرير المعنى بحسب الاختلاف بدلاً من البحث عن أساس فلن نظفر بشىء؛ ذلك أن الاختلافات ليست معطاة فى حد ذاتها وإنما هى نتاجات على الدوام. وعلى أية نظريةٍ مدققةٍ أن تُرَاوِحَ بين هذين المنظورين، أى: أن تُرَاوِحَ بين منظور الحدث ومنظور البنية أو بين الكلام واللغة، وهى مراوحةٌ لن تؤدى إلى حل هيجلى؛ ذلك أن كل منظور يبين خطأ المنظور الآخر بعمليةٍ من الإبدال أو التناقض المنطقى غير القابل للحل. وكما يكتب دريدا:

> فيما يخص نسق العلامات بوجه عام يمكن أن نوسع حدود ما يقوله سوسير عن اللغة: "النسقُ اللغوىُّ (اللغة langue) ضرورىٌّ للأحداث الكلامية (الكلام parole) كى تكون مفهومةً وحتى تنتجَ مفعولاتِها، إلا أن الأحداثَ الكلامية ضروريةٌ للنسق كى ينشئ نفسَه...". ثمة دائرية هاهنا، فلو أننا فرقنا بحسم بين اللغة والكلام، بين الشفرة والرسالة، بين التصميم والتنفيذ إلخ، ولو أننا قدَّرنا النسق اللغوى وأحداث الكلام حق قدرهما فلن نعرف من أين نبدأ وعلى أى نحو يمكن لشىء ما بوجه عام أن يبدأ، اللغة أم الكلام. ولذلك علينا أن نقر- قبل أى انفصال

لـ«اللغة والكلام، للشفرة والرسالة، وما ينشأ عن هذا الانفصال من متلازمات— بالإنتاج النظامى للاختلافات، أى بـ الإنتاج الذى ينطوى على نسق من الاختلافات. وعن طريق التجريد ولأسباب نوعية، ينطوى الاختلافُ المرجئُ على نتائج نُمايز بها تاليًا لغوياتِ اللغةِ من لغوياتِ الكلام (مواقع، صـ صـ ٢٨/ ٣٩-٤٠).

يشير مصطلح الاختلاف المرجئ différance الذى يقدمه دريدا هاهنا إلى عدم قابلية الحسم؛ أى إلى إبدال بين منظورى البنية والحدث لا يقبل حلاً هيجليًا. إن الفعل différer يعنى الاختلاف to differ والتأجيل to defer معًا. والطريقة التى ننطق بها Différance هى نفسها الطريقة التى ننطق بها différence، إلا أن النهاية anceوهى النهاية التى تُستخدم فى إنشاء الأسماء الفعلية، تمنح المفردة شكلاً جديدًا يفيد معنى "الاختلاف difference والقائم بالاختلاف differing والقائم بالإرجاء defering" فى آن. ومن ثم يشير الاختلاف المرجئ إلى اختلاف "كامن" يُعتبر الشرطَ فى عملية الدلالة، كما يُشير فى الآن نفسه إلى فعل الاختلاف الذى ينتج الاختلافات. والمصطلح الإنجليزى الذى يكافئه هو spacing (= المباعدة) الذى يشير إلى التنضيد وفعل التوزيع أو الترتيب فى آن معًا. وأحيانًا يستخدم دريدا المصطلح الفرنسى الموازى espacement إلا أن مصطلح الاختلاف المرجئ différance هو الأكثر قوة وملاءمة، والسبب أن الاختلافَ difference مصطلحٌ تتقاطع عنده كتابات نيتشه وسوسير وفرويد وهوسرل وهيدجر؛ وقد أدت بحوثهم فى أنساق العملية التى بمقتضاها تنشأ الدلالة إلى تأكيد الاختلاف والتمايز، كما أن تعديل دريدا للمصطلح بالإضافة إلى إثباته أن الكتابة لا يمكن أن تكون بعد الآن مجرد تمثيل للكلام— كل هذا قد جعل الإشكال الواضح أن كلَّ ما يحدد أيةَ نظريةٍ عن المعنى هو نفسُه ما يدمرها.

يكتب دريدا أن الاختلافَ المرجئ:

بنيةٌ وحركةٌ لا يمكن تصورها على أساس تعارض الحضور/الغياب؛ الاختلافُ المرجئُ لعبةٌ نظاميةٌ للاختلافات ولآثار الاختلافات؛ لعبةُ مباعدةٍ (espacement) ترتبط من خلالها العناصرُ بعضها ببعض. وهذه المباعدةُ إنتاجٌ، ناشطٌ وكامنٌ فى آن معًا (فالحرف a فى مفردة différance يؤشر على هذه الحيرة بين النشاطية والكمون، اللذين لم يهيمن عليهما بعدُ، ولم ينتظمهما عضويًا بعدُ هذا التعارضُ بين النشاطية والكمون)، مباعدةٌ هى إنتاجٌ للفواصل التى دونها لن تكون الحدودُ "التامةُ" دالةً؛ أى لن تؤدى دورًا (مواقع، صـ٢٧/٣٨-٣٩).

وهذه الإشكالات يتم استكشافها بشكل أعمقَ فى قراءة دريدا لسوسير التى فى كتابه "فى علم الكتابة"، حيثما يبين دريدا الكيفيةَ التى بها ينطوى كتابُ سوسير "دروس في علم اللغة العام" ـ وهو الكتاب الذى استلهمته البنيوية والسميوطيقا على حد سواء— على نقدٍ قوى لميتافيزيقا الحضور من جهة، كما ينطوى من جهة أخرى على دعمٍ واضحٍ لنزعة مركزية اللوجوس وتورطٍ فيها لم يكن له أن يتفاداه. ومن ثم يرينا دريدا الكيفيةَ التى بها يفكك خطابُ سوسير نفسَه بنفسِه، غير أن دريدا يرى أيضًا أن حركةَ التفكيك الذاتى هذه— بعيدًا عن اعتلال كتاب الدروس

ـ حركةٌ جوهريةٌ تمنحُ الكتابَ قوتَه، كما أنها وثيقة الصلة بموضوعه، وتلك نقطة ينبغي ألا تفوتنا في قراءة دريدا: فتعتمد قيمة أي نص وقوته على إمساكه اللافت بالطريقة التي يُفَكِّكُ بها الأسسَ الفلسفيةَ التي تسري عبره.

يبدأ سوسير بتعريف اللغة باعتبارها نسقًا من العلامات. وتُعتبر الأصواتُ لغةً حال أن تفيد في التعبير عن الأفكار أو نقلها. ومن ثمَّ تغدو طبيعةُ العلامةِ سؤالاً مركزيًا بالنسبة لسوسير: أي ما يمنحها هويتَها حتى تتمكن من أداء دور العلامة. يرى سوسير أن العلاماتِ اعتباطيةٌ ومتفقٌ عليها عرفيًا، وأن كل علامة لا يتم تعريفها بإضفاء خصائص جوهرية عليها، وإنما يتم تعريفها عن طريق اختلافاتٍ تُمَيِّزُ علامةً من غيرها من العلامات. اللغةُ والحال هكذا نسقٌ من الاختلافات، ويفضي هذا التصورُ إلى تعميق الفروق التي قد استندت إليها البنيوية والسميوطيقا: ثمة فرق بين اللغة langue بوصفها نسقًا من الاختلافات وأحداث الكلام parole التي يتيح النسقُ إمكانها، وفرق بين دراسة اللغة بوصفها نسقًا في زمن محدد (الدراسة التزامنية) ودراسة العلاقات المتبادلة بين عناصر من مراحل تاريخية مختلفة (الدراسة التعاقبية)، وفرق بين نمطين من الاختلافات ضمن حدود النسق أي: بين العلاقات التركيبية والاستبدالية، وفرق بين جزئي العلامة المكونين لها أي: بين الدال والمدلول. وهذه الفروق التأسيسية تؤسس كلاً من اللغويات والمشروع السميوطيقي اللذين يقومان بتبرير الأحداث اللغوية عن طريق اصطناع نسق محدد من العلاقات التي تجعل الأحداث اللغوية ممكنة.

لقد انتهى سوسير عبر بحوثه الدقيقة إلى الإصرار على الطبيعة العلائقية في النسق اللغوي بكل معنى الكلمة. الصوتُ نفسُه حسبما يَرى لا ينتمي إلى النسق، بل يسمح بإظهار وحدات النسق في أفعال الكلام. وينتهي سوسير فعليًا إلى أنه: "ما من شيء في النسق سوى اختلافات؛ أي ما من حدود تامة بذاتها" (الدروس، صـ١٢٠/١٦٦). وتلك صياغة جذرية، إذ إن النظرة الشائعة ترى اللغةَ مؤلفةً من كلمات؛ أي من كيانات وضعية، يشكل بعضُها مع بعض نسقًا، ومن ثم يدخل بعضُها مع بعض في علاقات، إلا أن تحليل سوسير لطبيعة الوحدات اللغوية يفضي إلى نتيجة مؤداها أن العلاماتِ على العكس نتاجُ نسق من الاختلافات؛ أي ليست كيانات وضعية بالمرة، وإنما هي وليدة اختلاف. وتنطوي هذه النتيجة على نقدٍ قوي لنزعة مركزية اللوجوس، فالانتهاءُ إلى أن نسق اللغة لا يتضمن إلا اختلافات فحسب يُقَوِّضُ ـ كما يوضح دريدا ـ أيةَ محاولة لإنشاء نظرية عن اللغة ترى الكلمات كيانات وضعية حاضرة إما في حدث الكلام أو في النسق. وحال أن ينطوي النسقُ اللغويُّ على اختلافات فحسب، عندئذ يلحظ دريدا أن:

> لعبة الاختلافات تتضمن تركيبات وإحالات تحول دون وجود عنصر بسيط حاضر في نفسه ولنفسه ويحيل إلى نفسه، عند أية لحظة أو بأية طريقة. وسواء في الخطاب المكتوب أو المنطوق، ما من عنصر يؤدي دور العلامة إلا وهو مرتبط بعنصر آخر، هو نفسه ليس حاضرًا على نحو بسيط. ويعني هذا الارتباط التكويني أن كل "عنصر"- وحدةً صوتيةً كان أم وحدةً كتابيةً- يتكون بالإحالة إلى الأثر الكامن فيه من العناصر الأخرى في السياق أو النسق. وليس هذا الارتباطُ التكويني، أي هذا التناسج، إلا الـ نص، نصٌ قد أنتجه من البداية إلى النهاية تحويلُ نص آخر، فحسب. ما من شيء حاضر على نحو بسيط أو غائب سواء في العناصر أو النسق. ليس إلا الاختلافات وآثار الآثار فحسب في كل مكان (مواقع، صـ٢٦/٣٧-٣٨).

إن الطبيعةَ الاعتباطيةَ التى بمقتضاها تنشأ العلامةُ والنسقُ الذى لا ينطوى على حدود تامة بذاتها— تجعلنا أمام فكرة تتسم بالمفارقة، ألا وهى وجود أثر مؤسس؛ أى بنية من الإحالة اللانهائية ليس فيها إلا آثار فحسب— آثار سابقة على أى كيانٍ بكيفيةٍ تغدو معها الآثار أثرًا للآثار.

وفى الوقت نفسه يتضمن عمل سوسير توكيدًا لنزعة مركزية اللوجوس؛ ذلك أن مفهومَ العلامة نفسه الذى استنه سوسير مؤسسٌ على تفرقة بين الحسى والعقلى حيثما يكون الدال مجرد مجاز إلى المدلول؛ ومن ثم يحتل وضعًا أدنى مقارنةً بالمفهوم أو المعنى الذى يقوم بنقله. وعلى ذلك لابد لـ"اللغوى" من افتراض القدرة على الإمساك بالمدلولات متخذًا منها نقطة بداية؛ حتى يمكنه تمييز علامة من أخرى، وحتى يحدد اللحظة التى تصبح معها التغييراتُ الماديةُ ذات معنى. وبذلك يشتبك مفهوم العلامة مع المفاهيم الأساسية فى نزعة مركزية اللوجوس، وهى مفاهيم من الصعب على سوسير أن يغيرها حتى لو أراد ذلك. ومع أن خطوات عديدة فى تحليله تقود إلى هذه النهاية فإنه يدعم بوضوح فهمًا للعلامة ذا طابع مركزى لوجوسى؛ ومن ثم يُجَذِّرُ تحليلَه ضمن حدود نزعة مركزية اللوجوس. ويبدو ذلك صراحةً فى تعامل سوسير مع الكتابة؛ إذ يمنحها وضعًا ثانويًا ومشتقًا، مما يثير اهتمام دريدا إلى حد بعيد. ومع أن سوسير قد استبعد الصوت بحد ذاته على وجه التخصيص من النسق اللغوى، وأصر على السمة الشكلية للوحدات اللغوية المنطوقة فإنه يعود فيؤكد أن "موضوع التحليل اللغوى لا تُعَرِّفُه توليفةٌ من الكلمة المكتوبة والكلمة المنطوقة: الكلمة المنطوقة وحدها هى ما يؤسس الموضوع" (الدروس، ص.ص٢٣—٢٤/٤٥). ذلك أن الكتابة ليست إلا مجرد وسيلة لتمثيل الكلام؛ أى ليست إلا أداةً تقنيةً أو ملحقًا برانيًا لا ضرورة لوضعه فى الاعتبار عند دراسة اللغة.

ويبدو ذلك خطوةً حسنةَ النية نسبيًا، غير أنها تمثل فى الحقيقة نقطةً يتقاطع عندها التقليدُ الغربىُّ حال أن يفكر بخصوص اللغة، على نحو ما يبين دريدا؛ ذلك التقليد الذى اعتبر فيه الكلامُ تواصلاً طبيعيًا ومباشرًا واعتبرت فيه الكتابةُ تمثيلاً اصطناعيًا وملتويًا للتمثيل. وعند تبرير هذه الأولية الممنوحة للكلام، يتم الاستشهاد عادةً بحقيقة أن الأطفال يتعلمون الكلام قبل تعلمهم الكتابة، أو أن ملايين الناس يتكلمون دون معرفتهم الكتابة حتى فى الثقافات الرفيعة، ولا تُتَّخَذُ هذه الوقائع برهانًا على مجرد أسبقية واقعية أو محلية للكلام على الكتابة، بل تتخذ برهانًا على أسبقية سائدة وشاملة. لقد اعتبر الكلامُ عملية من التواصل المباشر: تتدفق الكلمات من المتكلم وكأنها علامات عفوية تشف تمامًا عن فكره الحاضر الذى يريد مستمعه الظفر به. أما الكتابة فتتألف من إشارات فيزيقية منفصلة تمامًا عن الفكر الذى قد أنتجته، وتؤدى دورها على نحو مميز فى غياب المتكلم فتقترب من فكره بشكل غير أكيد، كما تبدو إشاراتها وكأنها مجهولة المصدر بالكلية؛ أى مبتورة عن أى متكلم أو مؤلف. ومن ثم فليست الكتابة مجرد أداة تقنية لتمثيل الكلام فحسب، وإنما هى أيضًا تشويه للكلام. وهذا الحكمُ على الكتابة قديمٌ قِدَمَ الفلسفة نفسها؛ ففى محاورة فيدروس يشجب أفلاطون الكتابة باعتبارها شكلاً لقيطًا من أشكال التواصل؛ أى مفصولة عن الأب أو لحظة الأصل، ولذلك تثير الكتابة كل أنواع إساءات الفهم بما أن المتكلم غير موجود كى يوضح للقارئ ما يدور فى ذهنه.

إن الامتياز المنعقد للكلام الذى بمقتضاه تُعتبر الكتابةُ تمثيلاً للكلام منطفلاً وغير تام، يستبعد سماتٍ معينة تنطوى عليها اللغة أو يستبعد وجوهًا من وظيفتها. ولأن البعد والغياب وإساءة الفهم وعدم الإخلاص والالتباس، تُعَدُّ كلها سمات للكتابة، فعندئذ يمكن عبر تمييز الكتابة من الكلام إنشاءُ نموذجٍ للتواصل يستمد معيارَه من الوضع المثالى الذى ينطوى عليه الكلام— حيثما تحمل الكلمات معنى، وحيثما يكون بقدرة المستمع الظفر من حيث المبدأ بما يدور فى ذهن المتكلم

على وجه الضبط. إن الحماسة الأخلاقية التى ينطوى عليها نقاشُ سوسير للكتابة تشير إلى شىء مهم محل رهان؛ ذلك أنه يتكلم عن "مخاطر" الكتابة؛ مخاطر تنطوى على "إخفاء" اللغة و"اغتصاب" دور الكلام أحيانًا. إن "استبداد الكتابة" قوى وماكر، ويفضى مثلاً إلى أخطاء فى النطق تُعد "مرضية"؛ أى: أخطاء تؤدى إلى إفساد طرق الأداء السوية فى النطق أو تلويثها. واللغويون الذين يُعنون بالأشكال المنطوقة "يسقطون فى الفخ". إن الكتابة حال أن تكون تمثيلاً للكلام تُهَدِّدُ نقاءَ النسق الذى تُخَدِّمُ عليه (فى علم الكتابة، صـ.صـ٣٤-٤٣/٥١-٦٣).

بقدرة الكتابة أن تؤثر فى الكلام؛ ولذلك تصبح العلاقة بينهما أكثر تعقيدًا مما بدت عليه للوهلة الأولى. إن المخطط التراتبى الذى يمنح الكلامَ أسبقيةً ويجعل الكتابةَ مستندةً إلى الكلام، ينتابه تغيرٌ فى المسار حال أن يتخذ سوسير من الكتابة مثالاً يشرح به طبيعة الوحدات اللغوية. كيف يمكن شرح فكرة تمايز وحدة لغوية من غيرها بأمثلة؟ "بما أن وضعًا مماثلاً يمكن ملاحظته فى الكتابة، وهى نظام آخر من العلامات، فإننا سوف نستخدم الكتابة فى عقد بعض المقارنات مما سوف يفسر المسألة بكاملها" (الدروس، صـ١١٩/١٦٥). فالحرف "ب" على سبيل المثال، يمكن كتابته بطرق متعددة طالما ظل متميزًا عن الحروف ت، ث، ن، إلخ. ذلك أنه ما من سمات جوهرية يتحتم الإبقاء عليها؛ لأن هويةَ الحرف هويةٌ علائقيةٌ بكل معنى الكلمة.

وهكذا تصبح الكتابةُ التى ادعى سوسير أنه ينبغى ألا تكون موضوعًا للبحث اللغوى، وسيلةَ توضيح مُثلى لطبيعة الوحدات اللغوية. وبذلك نفهم أن الكلامَ شكلٌ من الكتابة وشاهدٌ على آليةٍ لغويةٍ أساسيةٍ ظاهرةٍ فى الكتابة. وإذن يفضى النقاش بسوسير إلى هذا القلب: التراتب المعلن عنه يجعل من الكتابة شكلاً مشتقًا من الكلام، وطريقةَ تمثيل طفيليةٍ مضافةٍ إلى الكلام- هذا التراتب ينقلب، ويُقَدَّمُ الكلامُ ويُشرح باعتباره شكلاً من الكتابة. ويمنحنا هذا القلبُ مفهومًا جديدًا عن الكتابة: كتابة معممة تنطوى على نوعين: كتابة صوتية، وكتابة تصويرية.

بعد أن تتبع دريدا عملية التفاعل بين الكلام والكتابة فى نصوص أفلاطون وروسو وهوسرل وليفى شتروس وكونداياك وأخيرًا سوسير، قَدَّمَ إثباتًا عامًا مؤداه أنه إذا كان يتم تعريف الكتابة عن طريق خصائص تُعزى إليها بشكل تقليدى فسيصبح الكلامُ عندئذ شكلاً من الكتابة. وعلى سبيل المثال كثيرًا ما تم استبعاد الكتابة لكونها مجرد تقنية لتسجيل الكلام فى نقوش يمكن استعادتها وتداولها فى غياب قصد الإدلال الذى يستثير الكلامَ، إلا أن هذه الإعادية أو قابلية الإعادة هى الشرطُ فى أية علامة؛ ذلك أن تتابع الأصوات يؤدى دورًا دالاً حال أن يكون قابلاً للتكرار فحسب، وحال أن يمكن التعرف عليه ثانيةً بوصفه التتابع "نفسه" حين يُقال فى ظروف مختلفة. لابد أن يكون ممكنًا لى أن أكرر لشخص ثالث ما قد قاله لى شخصٌ ما. ولن يُعتبر تتابعُ الكلام تتابعًا للعلامة إلا إذا أمكن إيراده وتداولهُ بين أشخاص لا معرفة لهم بالمتكلم "الأصلى" ومقاصده الدالة. إن منطوقًا مثل: " l'Orangerie (ضاحية تقع جنوب باريس) يستمر فى الإدلال؛ لأنه قابل للتكرار أو يمكن تداوله أو الاستشهاد به مثالاً كما هو الحال هاهنا، كما أنه يستمر فى الإدلال أيًا كان "ما يدور فى أذهان" الذين يستنسخونه أو يستشهدون به. وإمكانُ كونه يتكرر ويقوم بدور بصرف النظر عن قصد الإدلال- هذا الإمكانُ يعد شرطًا فى العلامات اللغوية بوجه عام، وليس شرطًا مقصورًا على الكتابة وحدها. قد نرى الكتابة تسجيلاً ماديًا، غير أن دريدا يلحظ أنه: "لو أن الكتابة تعنى نقشًا متينًا للعلامات (وذاك لُبُّ مفهوم الكتابة الوحيد الذى لا يمكن اختزاله)، فسوف تستغرق الكتابةُ بوجه عام حقلَ العلامات اللغوية بكامله. ... إن الفكرةَ الفعلية للتأسيس ومن ثم اعتباطيةَ العلامة سابقةٌ على أفق الكتابة، أو تقع خارجه بشكل لا يُصدق" (فى علم الكتابة، صـ٤٤/٦٥). الكتابة بمعناها الواسع هى كتابة أصلية archi-writing؛ أى أن

الكتابة الأصلية an archi-writing أو الكتابة الأولية protowriting هى الشرطُ لكل من الكلام والكتابة بمعناها الضيق.

توفر لنا العلاقةُ بين الكلام والكتابة بنيةً يحدد دريدا طبيعتَها فى عددٍ من النصوص، ويطلق على هذه البنية منطق "المكمل" "supplement"، مستخدمًا بذلك المصطلح الذى يخصصه روسو للكتابة. يقول لنا معجم وبستر: إن المكمل هو: "الشىء الذى يُكَمِّلُ أو يُعتبر إضافةً". إن المكملَ للمعجم هو قسمٌ إضافى يُضاف إليه إلا أن إمكان إضافة مكمل ما يشير إلى أن المعجم نفسه ناقص. يكتب روسو: "لقد اصطنعنا اللغات كى نتكلم بها، وتؤدى الكتابةُ دورَ المكمل فحسب للكلام". ومفهوم المكمل هذا، الذى يظهر فى كل موضع عند روسو: "يُضْمِرُ ضمن حدوده دلالتين تعايشُهما معًا غريبٌ غرابةَ ضرورتهما" (فى علم الكتابة، صـ٢٠٨/١٤٤). ليس المكملُ إضافةً جوهريةً؛ إذ هو مُضافٌ إلى شىء مكتمل فى ذاته، وفى الوقت نفسه ينضاف المكمل كى يُكمل؛ أى ليعوِّض عن نقص ما فيما يُفترض أن يكون مكتملاً فى ذاته. ويترابط هذان المعنيان اللذان ينطوى عليهما المكملُ بمنطق قوى، وفى كلا المعنيين يحضر المكمل بوصفه برانيًا ودخيلاً على الطبيعة "الجوهرية" لما ينضاف إليه أو لما يحل محله.

يرى روسو الكتابةَ تقنيةً مضافةً إلى الكلام؛ أى: دخيلة على طبيعة اللغة، إلا أن المعنى الآخر لـ المكمل ناشطٌ هاهنا أيضًا. يمكن للكتابة أن تنضاف إلى الكلام حال أن يكون الكلامُ غير مكتفٍ بذاته؛ أى غير مكتفٍ بتمامه الطبيعى، وحال أن يكون فى الكلام نقصٌ ما أو غيابٌ يُمَكِّنُ الكتابةَ من إكماله. ويبدو هذا الوضعُ المزدوجُ واضحًا بشكل لافت فى مناقشة روسو للكتابة؛ ففى اللحظة التى يشجب فيها روسو الكتابة "بوصفها هدمًا للحضور واعتلالاً يصيب الكلام"، فى هذه اللحظة تحضر نشاطيةُ روسو الكاتب على نحو تقليدى تمامًا فى محاولةٍ منه لاستعادة حضور ما من خلال الغياب الذى تنطوى عليه الكتابة، وهو الحضور الذى كان يفتقده عندما يتكلم. وهاهى ذا صياغة بارعة الإيجاز من كتابه "الاعترافات": "كنت سأحب الظهور أمام الناس كما يحلو للآخرين أن يفعلوا، إلا أننى غير متيقن من إظهار نفسى على ما هى عليه، ليس بسبب عائق سوى أننى أبدو أمام الناس مختلفًا تمامًا عمّا أنا عليه. ولذا قررت الكتابة، وإخفاءُ نفسى على هذا النحو هو بالضبط الوضعُ الذى يناسبنى؛ ذلك أن الناس لا تعرف قيمتى الحقيقية عندما أكون حاضرًا بينهم" (فى علم الكتابة، صـ ٢٠٥/١٤٢).

تنوب الكتابةُ عن الكلام وتكمله؛ ذلك أن الكلام ينطوى فعلاً على الخصائص التى ننسبها عمومًا للكتابة: الغياب وإساءة الفهم. ويلحظ دريدا- مفضلاً الحديث عن نظرية لغوية عمومًا على الحديث عن رأى روسو- أن الكتابة يمكن أن تحتل مرتبة ثانوية ومشتقة "على شرط واحد فحسب: أن لا توجد لغة "أصلية" و"طبيعية" لم تكن قد افترعتها أو لم تمسسها الكتابة، وذلك بحد ذاته كتابة على الدوام"؛ كتابة أصلية (فى علم الكتابة، صـ٨٢/٥٦). إن مناقشة دريدا لـ "هذا المكمل الخطير" عند روسو تتضمن وصفًا لبنيته فى مختلف تجلياتها: يستدعى روسو مكملات برانية متعددة من أجل الإكمال؛ نظرًا لأن هناك نقصًا على الدوام فيما يكون مكتملاً؛ نقص أصلى.

وعلى سبيل المثال يَعتبر روسو التعليمَ مكملاً للطبيعة، ومن حيث المبدأ فالطبيعةُ مكتملةٌ؛ أى تامةٌ على نحو يُعد معه التعليمُ إضافةً برانيةً، غير أن شرحه لعملية الإكمال التى يقوم بها التعليمُ يكشف عن نقص متأصل فى الطبيعة، لابد للطبيعة أن تكون كاملة— أن تكتمل— عن طريق التعليم لو أنها أرادت أن تكون نفسَها بشكل حقيقى: التعليم الصحيح ضرورى لو أن الطبيعة البشرية أرادت أن تظهر كما ينبغى أن تكون عليه بشكل حقيقى. وإذن يجعل منطقُ التكميل الطبيعةَ طرفًا سابقًا؛ أى: يجعلها كمالاً موجودًا منذ البدء، إلا أن هذا المنطق نفسه

يكشف عن نقص متأصل أو غياب تنطوى عليه الطبيعة؛ ومن ثم يصبح التعليمُ، هذا الإضافيُّ المضاف، شرطًا جوهريًا لما يقوم بتكميله.

وأيضًا يتحدث روسو عن الاستمناء معتبرًا إياه "مكملاً خطيرًا". ومثلما الحال مع الكتابة يُعد الاستمناءُ إضافةً فاسدةً؛ أى ممارسة أو تقنية مضافة إلى الجنسية السوية مثلما الكتابة المضافة إلى الكلام، غير أن الاستمناء يحل أيضًا محل النشاط الجنسى "السوى" أو يكون بديلاً عنه. إن القيام بدور البديل يحتم على البديل أن يشبه بطريقة جوهرية ما يحل محله، وبالفعل تتكرر البنية الأساسيةُ التى ينطوى عليها الاستمناءُ— أى بنية الرغبة بوصفها حب الذات مسلطًا على موضوع متخيل لم يمكن للمرء أن "يتملكه"— فى العلاقات الجنسية الأخرى، التى يمكن اعتبارها من ثمَّ لحظاتٍ من الاستمناء المعمم.

إن ما تنطوى عليه المكملاتُ عند روسو تسلسلٌ لانهائىٌ من المكملات، وذلك على نحو يمكن معه الحديث عن عملية من الإبدال المعمم. الكتابة مكملة للكلام، إلا أن الكلام أيضًا مكمل. تقول إميل: يتعلم الأطفال الكلام بسرعة "ليكملوا ضعفهم ... ونحن نعرف مدى المتعة التى تتحقق حال التصرف اعتمادًا على الآخرين وتحريك العالم ببساطة عن طريق تحريك اللسان" (فى علم الكتابة، صـ ١٤٧/٢١١). وعند غياب مدام دى فارنس Warens— "أمه المحبوبة"— يلجأ روسو إلى المكملات، وهو يصف ذلك فى الاعترافات: "لن أنتهى لو أنى ذكرت كل الحماقات التى ارتكبتها والتى دفعتنى إليها ذكرى أمى الغالية حين لا أكون فى حضرتها. كنت أقبّل سريرى؛ لأنها نامت عليه، وستائر غرفتى وأثاثها؛ لأن يدها الجميلة قد لامستها، حتى أرضية الغرفة كنت أتمدد عليها؛ لأنها مشت فوقها" (فى علم الكتابة، صـ ١٥٢/٢١٧). تقوم هذه المكملات بدور فى غياب أمه بوصفها بدائل لحضورها، لكن الغرابةَ أن النص يستمر بعد ذلك مباشرةً على النحو الآتى: "وحتى فى حضورها كنت أقوم أحيانًا بتصرفات مسرفة يستثيرها فى نفسى الحبُّ المتوهجُ. ذات يوم ونحن على مائدة الطعام، بينما كانت تضع لقمة فى فمها صرختُ مدعيًا أنى رأيتُ شعرة عليها، وبمجرد أن أعادت اللقمة إلى طبقها التقطتُها بلهفةٍ وابتلعتُها". وتشير هذه الفقرة بمواربة إلى البنية الدالة الناشطة هاهنا؛ فما قد هتف به روسو أنه قد رآه على قطعة الطعام هو شىء دخيل ومتمايز (شعرة un cheveu) وهو فى الآن نفسه رغبته (إنى أشتهى un Je veux)، إنه الهتاف الذى يلعب دورًا من خلال مكملات يشترط بعضُها بعضًا.

وتستمر سلسلة البدائل، ولا يوقف "حضورُ" الأم Maman، كما قد رأينا، هذه السلسلةَ. وعلى الرغم من أنه قد "تملكها"، كما قلنا، فإن هذا التملك يظل موسومًا بالغياب، يقول بروست "إن الامتلاك الفيزيقى لا يُعد امتلاكًا بالمرة". كما أن ما يدعوها روسو أمَّه Maman هى نفسها بديل لأمه Mother غير المعروفة، وستكون هى نفسها مكملاً. "وعبر توالى هذه المكملات يظهر قانون: قانون سلسلة مترابطة ومتصلة؛ أى سلسلة وسائط إكمالية متضاعفة لا يمكن تفاديها، أى وسائط تنتج معنى للشىء نفسه الذى تقوم بتأجيله: الانطباع الأول الذى يثيره الشىء نفسُه أو يثيره الحضورُ المباشرُ أو الإدراكُ الأولُ. إن المباشَرةَ مشتقةٌ، وكل شىء يبدأ مع الوساطة..." (فى علم الكتابة، صـ ١٥٧/٢٢٦).

تعلمنا نصوص روسو، وكذلك نصوص آخرين، أن الحضورَ مُرْجَأٌ على الدوام وأن عمليةَ الإكمال ممكنةٌ فحسب بسبب وجود نقص أصلى، ومن ثمَّ تفترض هذه النصوصُ أننا نفهم ما ندعوه "الحياة" على مثال النص وعلى مثالِ عملية الإكمال التى تشكلها اطراداتٌ دالةٌ. وليس ما تؤكده هذه الكتابات أنه ما من شىء خارج النصوص التجريبية— الكتابات— التى تنطوى عليها ثقافةٌ ما، بل إن ما يقع خارجها مكملاتٌ، سلاسل من المكملات؛ وبذلك تضع الفرق بين الداخل والخارج موضع السؤال. إن النسيجَ الذى ندعوه حياة روسو الواقعية— أى الشروط السوسيواقتصادية

والأحداث العامة والخبرات الجنسية الخاصة وأفعال الكتابة- سوف يَثبت عند الاختبار أن ما يؤسس هذا النسيج هو منطقُ التكميل، كما هو حاصلٌ فى الموضوعات الفيزيقية التى يستحضرها روسو فى الفقرة الخاصة بأمه فى الاعترافات. يكتب دريدا:

ما نحاول أن نكشف عنه بتتبع الجريان المتواصل لـ"المكمل الخطير"، هو أن ما ندعوه الحياة الواقعية لهذه المخلوقات البشرية "بشحمها ولحمها"؛ أى ما وراء حدود كتاب روسو وخلفها، لا شيء أبدًا سوى كتابة؛ أى لا شيء سوى مكملات وعمليات من الإدلال يتبادل بعضُها مكان بعض؛ عمليات من الإدلال تنشأ فى سلسلة من الإحالات المتمايزة فحسب. يحدث الـ"واقعى" كشيء إضافى أو هو مضاف فحسب بالمعنى المأخوذ من أثر المكملات أو استئنافها. وهكذا على الدوام وعلى طول قراءتنا فى النص نجد أن الحاضر المطلق، أى الطبيعة، وهى ما يطلق عليها روسو "الأم الحقيقية" وغير ذلك من أوصاف، منفلتة على الدوام، لم توجد قط؛ والكتابةُ بوصفها اختفاءً للحضور الطبيعى هى ما يفتتح المعنى واللغة (فى علم الكتابة، صـ صـ ١٥٨-١٥٩/ ٢٢٨).

ولا يعنى انتشار المكمل فى كل لحظة وموضع عند روسو عدم الاختلاف بين "حضور" الأم Maman أو تيريز و"غيابهما" أو بين الحدث الواقعى والخيالى نقول لا يعنى. إن هذه الاختلافاتِ متقاطعةٌ وتلعب دورًا قويًا فيما ندعوه خبرتنا. إلا أن تأثيرات الحضور وتأثيرات الواقع التاريخى تنشأ ضمن حدود عملية الإكمال وتكون ممكنة عن طريقها وعن طريق الاختلاف بوصفهما- أى: الإكمال والاختلاف- تحديدات دقيقة لهذه البنية. إن "حضورَ" الأم نمطٌ معينٌ من الغياب، وكما قد أبان منظّرون عديدون، ليس الحدث التاريخى الواقعى سوى نمط خاص من الخيال. ما من حضور أصلى؛ إذ ليس إلا حضور يُعاد إنشاؤه (الكتابة والاختلاف، صـ٢١٢/٣١٤).

إن الاستراتيجية الميتافيزيقية الناشطة فى نصوص روسو؛ تلك الاستراتيجية التى تتكشف عن انحلالها حال انبنائها، تنطوى على "استبعاد للاحضور عن طريق تحديد المكمل بكونه مجرد برانية وإضافة محضة أو غيابًا محضًا. ... فما ينضاف ليس شيئًا؛ لأنه ينضاف إلى حضور تام يُعتبر خارجيًا بالنسبة لما ينضاف. يأتى الكلام كى ينضاف إلى حضور بديهى (حضور الكيان والجوهر والمثال eidos والكائنية ousia وهكذا)، وتأتى الكتابة كى تنضاف إلى حيويةِ كلام حاضر بذاته، ويأتى الاستمناء كى ينضاف إلى ما يُدعى التجربة الجنسية السوية، وتنضاف الثقافةُ إلى الطَّبيعة، والشر إلى البراءة، والتاريخ إلى الأصل، وهكذا" (فى علم الكتابة، صـ صـ ١٦٧/٢٣٧ — ٢٣٨). وما تحظى به هذه البنيات وعمليات إضفاء القيمة من أهمية فى تفكيرنا يشير إلى أن الامتياز المنعقد للكلام على حساب الكتابة لم يكن غلطةً كان يمكن ألا يقع فيها هؤلاء الكتّاب؛ إذ يصر دريدا على أن تنحيةَ الكتابة إلى مرتبة المكمل ما هى إلا عمليةٌ يُؤَمِّنُ عليها تاريخُ الميتافيزيقا بكامله، وهى أيضًا عمليةٌ يتقاطع عندها الـ"اقتصاد" الذى بمقتضاه تنشأ المفاهيم الميتافيزيقية:

إن الامتياز المنعقد للـ صوت لا يستند إلى خيارٍ قد كان يمكن تجنبه؛ ذلك أنه يتجاوب مع لحظة ما فى النسق (لنقل: مع لحظة ما فى "حياة" الـ"تاريخ"، أو مع لحظة فى الـ"وجود بوصفه علاقة بالذات"). إن نسق "سماع/فهم المرء لنفسه حال الكلام" من خلال المادة الصوتية— التى تحضر بحد ذاتها

بوصفها دالاً ليس برانيًا أو ليس دنيويًا، ومن ثمَّ ليس تجريبيًا أو لا يشترطه شيء سواه— هذا النسق قد هيمن بشكل حتمى على تاريخ العالم طوال حقبة كاملة، وقد أنتج الفكرة المُثلى عن العالم؛ أى فكرة أصل العالم، التى نشأت من الاختلاف بين الدنيوى وغير الدنيوى، وبين الخارج والداخل، وبين المثالى وغير المثالى، وبين الكلى وغير الكلى، وبين المتعالى والتجريبى، إلخ (فى علم الكتابة، صـ.صـ ٧-١٧/٨).

إن هاهنا ادعاءاتٍ ضخمة، إلا أنها تصبح أكثر قابلية للفهم والإدراك لو أننا لاحظنا أن الفكرة المُثلى عن الـ"عالم"، وهى فكرة خارج حدود الوعى، تستند إلى فروق بين حدود متعارضة مثل الداخل/الخارج، ويعتمد كل تعارض من هذه التعارضات على نقطة أساسية تنطوى عليها عملية التمايز؛ نقطة يصبح معها الخارجُ متمايزًا من الداخل. إن ما يتحكم فى الفرق بين الداخل والخارج مثلاً نقطةٌ فى عملية التمايز. ومن ثم ينطوى ادعاء دريدا على ثنائية: أولاً : إن لحظة الكلام أو بالأحرى لحظة كلام المرء مع نفسه حيثما يبدو الدال والمدلول ممنوحين تزامنيًا، وحيثما يبدو الداخل والخارج والمادى والروحى مندمجين— هذه اللحظة تشتغل بوصفها نقطة المرجع؛ النقطة التى يتم افتراض كل هذه الفروق الجوهرية بالنظر إليها. وثانيًا : هذا الرجوع إلى لحظة كلام المرء مع نفسه يُمَكِّنناً من اعتبار الفروق الناتجة تعارضات تراتبية، يرتبط فيها طرفٌ أول بالحضور واللوجوس، فى حين يؤشر الطرفُ الآخر على السقوط عن الحضور. ويُعتبر التلاعب بالامتياز المنعقد للكلام تهديدًا لهذا الصرح العظيم.

يلعب الكلام هذا الدور؛ إذ حال أن ينطق المرء دالاً ماديًا ومدلولاً روحيًا فإنهما يبدوان حاضرين إلى نفسيهما فى وحدة غير منفصلة حيثما يهيمن ما هو عقلى على ما هو حسى، فى حين تبدو الكلماتُ المكتوبةُ إشاراتٍ فيزيقية يتحتم على القارئ ترجمتها ونفخ الروح فيها، وقد نراها دون فهمها، وإمكانُ حدوث هذه الفجوة يعد جزءًا من بنية الكلمات المكتوبة. لكننى عندما أتكلم لن يبدو صوتى شيئًا برانيًا أو خارجًا عمّا أسمعه أولاً ثم أفهمه. إن استماعى إلى كلامى وفهمه بينما أتحدث هما شيء واحد لا يتجزأ. وهذا هو ما يدعوه دريدا نسق سماع/فهم المرء لنفسه حال الكلام s'entendre parler، حيث يدمج الفعلُ الفرنسيُّ s'entendre عمليتى سماع المرء لنفسه وفهم نفسه معًا بشكل فعَّال. فى الكلام أبدو واصلاً مباشرةً إلى أفكارى. ولن تفصلنى الدوال عن فكرى، بل إنها تمحو نفسَها فى حضرته. ولن تبدو الدوال أدوات برانية أستقيها من العالم ثم أستخدمها، بل تنبع على نحو عفوى من الداخل وتشف عن الفكر. ومن ثم تقدم لحظةُ سماع/فهم المرء لنفسه حال الكلام "تجربةً فريدة للمدلول الذى ينتج نفسَه عفويًا من داخل النفس بوصفه مفهومًا مدلولاً عليه فى عنصر المثالية أو الكلية. والسمة اللادنيوية فى مادة هذا التعبير هى مُقَوِّمُ هذه المثالية. وليست تجربةُ محو الدال فى الصوت صورةً مضللة من بين صور أخرى— ذلك أنها الشرط فى الفكرة المُثلى عينها التى بمقتضاها تنشأ الحقيقة..." (فى علم الكتابة، صـ ٣٣/٢٠).

إن محوَ الدال فى الكلام شرطٌ للفكرة المُثلى عن الحقيقة؛ لأنه يُوَحِّدُ إمكان الموضوعية— أى الإظهار القابل للتكرار والمعنى الذى يطرد حضوره فى ظهورات عديدة— مع هيمنة المعنى على الظهور. وبقدر ما تقتضى الحقيقةُ ضمنًا إمكانَ اطراد عملية الدلالة التى تعلن عن نفسها وتظل غير متغيرة أو تظل غير متأثرة بأدوات نقل الفكر التي تُظهر الفكر — يمدنا الصوتُ بنموذج ضرورى. وعن طريق هذا النموذج الذى يكون فيه الفرقُ بين المعنى والشكل تعارضًا تراتبيًا، تهيمن الحقيقةُ على التعارض بين الحقيقة وأشكال ظهورها.

لكن هذا النموذج ينطوى بالطبع على صورة خادعة. يخلق تلاشى الدال فى الكلام انطباعًا بالحضور المباشر للفكر، ومع أن الكلمة المنطوقة تتلاشى بسرعة فإنها تظل شكلاً ماديًا يشتغل عبر اختلافاته عن أشكال أخرى، مثلما الحال فى الكلمة المكتوبة. وحال أن نحتفظ بالدال الصوتى من أجل الاختبار، كما فى حالة تسجيله على شريط كاسيت حيثما يمكننا "الاستماع إلى أنفسنا نتكلم"، فسوف نكتشف أن الكلام عبارة عن تتابع للدوال مثلما الحال فى الكتابة، كما أنه عرضة لعملية التفسير على نحو يشبه ما يحدث فى الكتابة. ومع أن الكلام والكتابة ينتجان أنواعًا مختلفة من تأثيرات عملية الإدلال، فإنه لا أسسَ يقوم عليها ادعاءُ أن الصوت ينقل الأفكار على نحو مباشر كما يحدث فى الحالة التى أستمع فيها إلى نفسى تتكلم عند لحظة النطق. إن تسجيل كلام المرء يكشف عن أن الكلام يشتغل أيضًا عن طريق لعبة اختلاف الدوال، ويجهد الامتيازُ المنعقد للكلام من أجل كبت نشاطية هذا الاختلاف. "الكلام والوعى بالكلام— أقصد الوعى بوصفه حضورًا ذاتيًا على نحو بسيط— هما ظواهر تنطوى على حب الذات مجربًا بوصفه كبتًا للاختلاف المرجئ. وهذه الظاهرة، أى هذا الكبت المسلم به للاختلاف المرجئ، هذا الرد(*****) الحيوى المتضمن فى لا شفافية الدال — هو الأصل فيما ندعوه حضورًا" (فى علم الكتابة، صـ ١٦٦/٢٣٦).

برؤية الطريقة التى يشتغل بها نسق سماع/فهم المرء لنفسه حال الكلام- بوصفه نموذجًا للحضور- والتى تتكشف عن صلابة نزعة مركزية الصوت ونزعة مركزية اللوجوس وميتافيزيقا الحضور— نكون قد استكشفنا الأسباب التى جعلت الكلام يحتل منزلة أعلى من الكتابة. وهذا التعارض بكل ثقله الاستراتيجى يتم تفكيكه فى النصوص التى تعمل على توكيده؛ إذ يَثبت فى النهاية أن الكلام يستند إلى الخصائص نفسها التى يتم عزوها عادةً إلى الكتابة. والنظرياتُ المؤسِّسة على الحضور— سواء كان حضور المعنى بوصفه قصدًا دالاً يحضر إلى الوعى عند لحظة النطق أم حضور المعيار المثالى الذى يكمن خلف كل أشكال ظهور المعنى— تحلُّ نفسَها بنفسِها، بما أن الأساس المفترض أو الأرضية تتكشف عن كونها نتاج نسق تمايزى، أو بالأحرى نسق اختلاف وتخالف وتأجيل. لكن عملية التفكيك أو التفكيك الذاتى التى تنطوى عليها النظرياتُ المتمركزةُ لوجوسيًا، لن تفضى إلى نظرية جديدة تضع كل الأشياء وضعًا واحدًا؛ حتى النظريات الشبيهة بنظرية سوسير مع كل نقدها القوى لنزعة مركزية اللوجوس من خلال مفهومها عن النسق القائم على التمايز، لا تفلت من المقدمات المنطقية المتمركزة لوجوسيًا وهى المقدماتُ التى تُضْعِفُ فى الآن نفسه مركزيةَ اللوجوس، وما من سبب للاعتقاد بأن المشروع النظرى يمكن أن يحرر نفسه من هذه المقدمات. قد يكون محكومًا على النظرية بالتناقض الذاتى البنيوى على الدوام.

إن السؤال الذى يُثار الآن، خصوصًا بالنسبة إلى نقاد الأدب الذين ينشغلون بمؤديات النظريات الفلسفية أكثر من انشغالهم باتساقها أو تنسيبها هو: ما الذى ينبغى عليهم عمله بنظرية المعنى وتفسير النصوص؟ وتتيح الأمثلة التى فحصناها جوابًا تمهيديًا على الأقل: لا يشرح التفكيك النصوص بالمعنى التقليدى الذى يحاول الإمساك بوحدة المحتوى أو التيمة، وإنما يبحث فى اشتغال التعارضات الميتافيزيقية بتفنيدها، كما يبحث فى الطرق التى تنتج بها المجازاتُ النصيةُ والعلاقاتُ فى النص منطقًا مزدوجًا ومتناقضًا، كما هو الحال فى لعبة المكمل عند روسو. ولا تقدم الأمثلة التى تأملناها سببًا للاعتقاد بأن التفكيك— كما قد يُفترض أحيانًا— يجعل من التفسير عمليةً من التداعى الحر لا شىء وراءها، مع أن التفكيك يركز على التضمينات المفاهيمية والمجازية ولا يركز على مقاصد التأليف. ومن ناحية أخرى قد ينطوى تفكيك التعارض بين الكلام والكتابة— عن طريق جعل ما هو مركزى بالنسبة إلى محمولات اللغة مرتبطًا بخصيصةٍ ينطوى عليها ما هو مكتوب— على تضمينات لم نستكشفها بعد. وعلى سبيل المثال إلى أى مدى تؤثر فكرة أن المعنى نتاج اللغة— وليس نتاج منبعه الذى عنه صدر— على عملية التفسير؟ لعل قراءة دريدا لأوستن فى

"توقيع حدث سياق" (ضمن كتاب هوامش الفلسفة) ثم جداله اللاحق مع منظّر أفعال الكلام الأمريكي جون سيرل، يمثلان مقاربة جيدة للمؤديات التي ينطوي عليها تفكيك نماذج عملية الإدلال.

الهوامش:

هذه ترجمة كاملة للقسم الأول من الفصل الثاني المعنون بـ"التفكيك"، ضمن كتاب:
Jonathan Culler, On Deconstruction: Theory and Criticism after Structuralism (Cornell University Press, 1982).

والكتاب كاملاً قيد الترجمة لحساب المجلس الأعلى للثقافة.

(١) لن أقوم هنا بمناقشة التفكيك عند دريدا في علاقته بأعمال هيجل ونيتشه وهوسرل وهيدجر؛ حيث قامت جايترى سبيفاك بذلك في مقدمتها لكتاب "في علم الكتابة". انظر أيضًا: رودلف جاش "التفكيك بوصفه نقدًا".

(٢) وقد نرفض ذلك بادعاء أننا نلاحظ أحيانًا السبب أولاً ثم النتيجة: فمثلاً نرى ارتفاع الكرة في الهواء باتجاه زجاج النافذة أولاً ثم نشاهد تحطم الزجاج ثانيًا. ويرى نيتشه أن التجربة أو توقع النتيجة فحسب هو ما يمكننا من تعيين ماهية الظاهرة بوصفها سببًا "ممكنًا". وعلى أية حال فإن التشكيك في الاستدلال على العلاقات السببية من العلاقات الزمنية يجعل من إمكان قلب العلاقة الزمنية مؤشرًا كافيًا للتشويش على مخطط السببية. ومن أجل نقاش وافٍ للتفكيك النيتشوي انظر: بول دي مان "أمثوليات القراءة"، صـصـ١٠٧– ١١٠. ومن أجل مناقشة موسعة لمثال آخر وهو تفكيك نيتشه لمبدأ الهوية انظر: دي مان صـصـ ١١٩– ١٣١ ، وسارة كوفمان" نيتشه والمشهد الفلسفي" صـصـ ١٣٧– ١٦٣ .

(*) الرسم الإنجليزي هو: intervening وهي مفردة يعني الفيلسوفُ بها التدخلَ بما هو إكراه وعنف خارجي كما يعني بها أيضًا لحظة طروء حتمي ينتاب حقل التعارضات ويقتضيها في الآن نفسه الحقل عينه، سواء أكان هذا الطروء خارجيًا أم داخليًا؛ مما يؤدي في النهاية– برسم المعنيين– إلى قلقلة الحقل (المترجم).

(**) يعد نيتشه المعلم الذي يتلقى عنه دريدا بذور استراتيجية التفكيك، وقد تتبعت سبيفاك العلاقات القوية والغامضة بين نيتشه ودريدا، وهي العلاقات التي يفضل دريدا أن تظل طي الكتمان. حول هذا الخصوص انظر مواضع متفرقة من ترجمتنا لمقدمة سبيفاك تحت عنوان "مدخل إلى الجراماتولوجيا" ضمن كتاب: صور دريدا، نشرة المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٢م (المترجم).

(***) نقترح الرسم العربي "الاختلاف المرجئ" ترجمةً لـ "différance"، ونحن بذلك نخطِّئ ترجمته بـ "الاختلاف المرجَأ" وهي الترجمة التي أشاعتها هدى شكري عياد (فصول، المجلد السادس، العدد الثالث، ١٩٨٦م)، كما أننا نستريب في ترجمته بـ"التأجيل" أو "الإرجاء"؛ والسبب أن هذه الترجمات– بخلاف ترجمتنا– تجافي استخدام الفيلسوف وتشغيله للمفردة، وهو الاستخدام الذي يعني– فيما نرى– أن الاختلاف هو الهيئة التي تقوم بفعل الإرجاء، وليس التأجيلُ أو الإرجاءُ واقعًا على الاختلاف بفعل هيئة خارجةٍ عنه. انظر الهامش الشارح، صـ ١٥، في: صور دريدا (المترجم).

(****) أظن أن سهوًا قد وقع فيه صاحب كتاب "الخروج من التيه: دراسة في سلطة النص" (سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٩٨، نوفمبر ٢٠٠٣)، حيث يترجم المفردة "differentiation" إلى "عمليات اختلاف وإرجاء" في نهاية الاقتباس الذي يأخذه عن كلر صـ ١٩٣، والصواب أن الرسم الإنجليزي للكلمة يشير إلى عملية "مفاضلة" أو "تمايز" أي إلى تقسيم تصنيفي، ويشيع عنده هذا النوع من السهو المفضي إلى أغلاط سواء في النقل عن دريدا مباشرةً أو عن من يتصدون لمناقشة التفكيك (المترجم).

(*****) ينطوي تعليق دريدا هاهنا على نقد ضمني لـ"عملية الرد الظاهراتي"، وهي العملية التي بمقتضاها تنبني فلسفة هوسرل بكاملها. من أجل تفصيلات موسعة حول تفكيك دريدا لنظرية المعنى في فلسفة هوسرل انظر: جاك دريدا، الكلام والظواهر، ترجمه إلى الإنجليزية ديفيد أليسون، طبعة جامعة نورثويسترن، ١٩٧٣ (المترجم).